موقف الجاحظ من الكتاب: دراسة تحليلية في ضوء المنهج الظاهراتي

Al-Jahiz's Stance on the Book: An Analytical Study in Light of the Phenomenological Method

10.35781/1637-000-202-004

أ.د. طارق بن محمد المقيم*

*أستاذ بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران
كلية الدراسات العامة، قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية

الملخص

تناول البحث موقف الجاحظ من الكتاب عبر المنهج الظاهراتي (الفينومينولوجي) والوصفي التحليلي؛ للكشف عن وعيه الذاتي تجاهه، متجاوزاً الدراسات السابقة التي حصرت دوره في الوظيفة المعرفية ونقل العلوم .

أظهرت الدراسة أن الجاحظ حوّل الكتاب من مجرد جماد مصنوع (ورق وحبر) إلى "ذات حاضرة" وكائن اجتماعي متفاعل يفيض بالحياة، ممارساً ما يشبه "أنسنة" الجماد ليعوضه عن تقلبات العلاقات البشرية؛ فكان له أنيساً في وحدته، وصديقاً مطاوعاً، وملاذاً نفسياً آمناً .

وحلل البحث أبعاد هذه العلاقة المتعددة؛ فبيّن قيمته التربوية في صقل العقل وتهذيب الأخلاق والحد من التعصب، وفائدته الوعظية والشرعية، وأهميته الاقتصادية بوصفه ميراثا يقي من الفقر والضرائب ولم يغفل البحث البعد الحضاري للكتاب كجسر يربط بين الثقافات ويخلد الأمم، وقيمته الاجتماعية والخطابية الرفيعة، وعناية الجاحظ بجمالياته الشكلية من حبر وورق، فضلاً عن وظيفته الترفيهية القائمة على المزج بين الجد والهزل لدفع السأم .

خلصت الدراسة إلى أن تجربة الجاحظ تؤسس لفهم "سيرة الأشياء" في التراث العربي، وتوضح كيف اندمج هذا المقتنى المادي عميقاً في نسيجه الفكري والنفسي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، الموقف من الكتاب، المنهج الظاهراتي، أنسنة الأشياء، الوعي الذاتي.

ISSN : 2410-1818

Al-Jahiz's Stance on the Book: An Analytical Study in Light of the Phenomenological Method

Dr. Tariq Mohammed Al-Muqaim

Abstract

This study explores Al-Jahiz's stance on the book using a phenomenological approach and descriptive-analytical survey to uncover his subjective consciousness toward it, moving beyond previous studies that limited its role strictly to the cognitive transmission of knowledge.

The research demonstrates that Al-Jahiz transformed the book from a mere manufactured inanimate object (paper and ink) into an "active presence" and an interactive, living companion. Through an "anthropomorphization" of this material object, it served as a substitute for volatile human relationships—becoming a comforting companion in solitude, a compliant friend, and a secure psychological refuge.

Furthermore, the study analyzes the multidimensional facets of this bond: its educational value in sharpening the intellect, refining morals, and mitigating bigotry; its spiritual and sermonic utility; and its economic worth as optimal inheritance exempt from taxes and secure against impoverishment. The study also highlights the book's civilizational dimension as a bridge connecting diverse cultures and immortalizing nations, its elevated social and communicative standing, Al-Jahiz's appreciation for its material aesthetics (ink and paper), and its entertaining function of blending earnestness with levity to dispel monotony.

The study concludes that Al-Jahiz's experience lays the groundwork for understanding the "biography of things" in Arab heritage, illustrating how material objects became profoundly integrated into his intellectual, psychological, and social fabric.

Keywords:

Al-Jahiz; Attitude toward the book; Phenomenological approach; Anthropomorphism of things; Subjective consciousness.

ISSN : 2410-1818

مقدمة:

شهدت الحضارة العربية الإسلامية في القرن الثالث الهجري (العصر العباسي الثاني) مرحلة مهمة وتحولاً في مسيرة الفكر العربي والإسلامي، فقد انتقلت العلوم والمعارف من طور "المشافهة" والاعتماد على الذاكرة الشفوية، إلى طور "الكتابة والتدوين" ومن أبرز رواد تلك المرحلة "أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" (159 - 255 هـ) حيث انبرى لتقعيد الكتابة وبيان أهميتها ودورها في بناء المجتمعات والحضارات، كما حرص على تدوين تجربته في الكتابة والتأليف ووصف مجتمع " الكتاب" ونظرته الفلسفية نحو الكتاب وعلاقته به.

وكان لبيئة البصرة الثقافية في ذلك العصر أثرٌ كبيرٌ في الجاحظ، فقد عدت من أبرز مراكز التلاقح الحضاري بين عدة شعوب، ونشطت من خلالها حركة الترجمة لعلوم الإغريق والفرس والهنود. ويلحظ القارئ لمصنفات الجاحظ الكبرى كالحيوان والبيان والتبيين أثر ثقافته العالية، وتعلقه الكبير بالكتاب والقراءة، وكثيراً ما عُني الباحثون بدوره الكبير في حفظ كثير من المعارف والعلوم المترجمة عن الشعوب الأخرى، وكذلك في دوره في تقنين الكتابة وكشف ملامح مجتمع الوراقين، لكن لم يحللوا موقفه الخاص من الكتاب من أبعاد متعددة كما سيتضح في هذا البحث.

وهذا البحث يكشف عن موقف الجاحظ من الكتاب من وجهة نظر ظاهراتية "فينومينولوجية " تمثل الوعي الخاص للجاحظ تجاه "الكتاب"، وتكشف عن آلية تحول الكتاب في تجربة الجاحظ من مجرد جماد مصنوع (ورق وحبر وثمن) إلى "ذات حاضرة"، وأنيس وجداني، ومُوجه تربوي، واستثمار اقتصادي، وجسر حضاري، وأداة للترفيه والدفاع عن الذات، والأسباب التي دعته ليتخذ تلك المواقف منه.

ويستعين البحث بالمنهج الظاهراتي (الفينومينولوجي) إضافة إلى المسح الوصفي التحليلي؛ حتى نبين أثر الكتاب على شخصية الجاحظ تحديداً، والغوص في أعماق تلك التجربة الذاتية له، كما عبر عنها في نصوصه وصراعاته ومواجهاته مع مجتمع الوراقين والعلماء والحساد وتعليقاته على علاقة السابقين له بالكتاب.

منهج الدراسة:

يسعى الباحث إلى الاستعانة بالمنهجين الوصفي والظاهراتي، حيث يصف مواقف الجاحظ من الكتاب، وشعوره نحوه، ليس بوصفه وعاء وأداة لنقل المعرفة فقط، وإنما أداة ترتبط به ارتباطاً وثيقاً، تغنيه عن العلاقات الإنسانية، وتكسبه مكاسب اجتماعية واقتصادية وغير ذلك، ويحلل الباحث تلك المواقف من خلال المنهج الظاهراتي.

يقترح هوسرل التخلي عن كل ما يرتبط بالعالم الخارجي لأن التوجه بالمعرفة يكون إلى أعماق الذات، إلى الوعي ذاته، وهذه المعرفة الخاصة بالشخص هي موضوع البحث الفينومينولوجي، وما

ISSN : 2410-1818

يسمى بالإرجاع الفينومينولوجي والذي يقضي بأن يخرج من دائرة البحث كل ما يمت بصلة للعالم الخارجي[1]، ولا يعني في هذا البحث التخلي عن كل ما يمت بعالم الجاحظ الخارجي، للوصول إلى موقف الجاحظ من الكتاب، إلا أن تركيزنا سينصب على عبارات الجاحظ التي تعبر عن ذاته، وموقفه الخاص من الكتاب، وتلك العبارات نجدها في كتب عدة، ونربطها ببعض حتى نعرف حقيقة تصوره، والأبعاد المساهمة في تشكيل تصوره الخاص، والذي قد يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية.

"إن الظاهراتية تجمع بشكلٍ فعَّال توجهين فلسفيَّين الأول البحث عن جوهر الأشياء المُراوِغ، والثاني التساؤل بشأن إمكانية اختبارها "إنها تُجدد استقصاء سقراط الدؤوب عن «ماهية» الأشياء، وتجدد الاستقصاء الحديث الدؤوب عن «الكيفية» التي نختبر بها الأشياء، إن الأسلوب الهجين للظاهراتية يوازن بين هذَين التوجُّهين المتعارضَين عن طريق دمجهما معًا. فهي تسأل: «كيف نختبر الماهيات، وما ماهية الخبرة؟"[2].

الدراسات السابقة:

لم تستقصِ الدراسات السابقة الموقف الكامل للجاحظ من الكتاب، بل وقفت على الدور الرئيسي للكتب وهو الجانب المعرفي الذي يقدمه الكتاب للقارئ، دون التعمق في المكانة التي يحتلها الكتاب في نفس الجاحظ بوجه خاص، من خلال تقصي ملامح هذه الظاهرة، وانعكاسها على حياة الجاحظ وفكره ومشاعره.

فقد درس الطعان الكتب الأجنبية وموقف الجاحظ منها ودوره في إبراز أثر الكتب على الأمم الأخرى وكذلك العرب، وأنه مقياس لدرجة التطور والتقدم[3]...وبين موقف العرب بعد الإسلام من الكتب، وقيمتها المعرفية عندهم، وما يكسبه أصحابها من مكانة اجتماعية متميزة، فأصبح الكتاب عندهم مقياسا للحضارات والأمم السابقة[4]، ففي القرن الثالث الهجري تحولت العلوم إلى شفوية وكتابية وكانت هذه المرحلة تحولاً بحسب طبيعة العلوم ومدى قربها وبعدها عن الشفوية،[5] وقد امتدح الجاحظ الأمم التي عنيت بالكتاب وكذلك المترجمين العرب الذين أسهموا في نقل تلك العلوم، وعاب الأمم غير المهتمة بالكتاب وجعل ذلك سبب تخلفها.[6]

---

[1] الموسوعة العربية، الموسوعة العربية الإلكترونية، هيئة الموسوعة العربية: دمشق، 2005م، https://arab-ency.com.sy/details/7606.

[2] تشاد إنجلاند، الظاهراتية: مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي: القاهرة، 2018م، ص 21.

[3] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي: خطابات في الكتب والمعرفة والعرقية في كتابات الجاحظ، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 126.

[4] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 130.

[5] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 131.

[6] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 135.

ISSN : 2410-1818

ومجمل قول الطعان يبين أن الجاحظ ركز على الوظيفة المعرفية للكتاب فقط، وأهمية موقف الجاحظ من الكتب كونها أساساً مهماً لنقل ثقافات العالم.[1] وغابت عنه الجوانب الأخرى للكتاب من وجهة نظر الجاحظ، وحصر دور الكتاب ووظيفته في نقل المعنى فقط، دون حصر مجمل النصوص التي بينت علاقة الجاحظ بالكتاب من أبعاد مختلفة.

ودرس الهاشمي "الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب، نموذج تراثي" [2] الذي بين موقف الجاحظ من مجتمع الوراقين وتفاصيله من أدوات الكتابة والنسخ ووصف حوانيتهم ودكاكينهم، وأثر الكتاب على الجاحظ ومجتمعه في ذلك العصر بوجه عام.

وظاهرة التعلق بالكتاب وكشف طبيعة ذلك التعلق وأبعاده ظاهرة مستمرة عبر الأزمان إلى يومنا هذا، فتقول فرجينيا وولف :إن الرغبة في القراءة مثل جميع الأشواق الأخرى،[3] وفي ذلك إشارة إلى أن العلاقة بالكتاب تشبه الأنواع الأخرى من العلاقات الإنسانية، ويظهر هنا التباين بين الناس في علاقاتهم، فكل له سلوك خاص تجاه علاقاته، وقناعات خاصة ربما لا يتفق معها الآخرون، ويأتي دورنا في مثل هذا البحث لكشف المظاهر العامة لعلاقة الجاحظ بوجه خاص مع الكتاب، والمنهج الظاهراتي معين لنا على سلوك هذا المسلك.

ويقول ألبرتو مانغويل الكاتب العالمي المعاصر: ليس لدي شعور بالذنب بشأن الكتب التي لم أقرأها، فأنا أعرف أن كتبي لديها صبر، وسوف تظل تنتظرني حتى نهاية العمر. وفي ذلك إشارة منه لشعور كتبه به، بل إنها ستصبر عليه حتى يلتقي بها وتلتقي به، ويقول أيضًا: "أنا أعرف تمامًا أن شيئًا ما يموت في داخلي عندما أستغني عن كتبي، إشارة منه إلى أن ألمًا قويًا يصيبه إذا فارق كتبه، وربما ترتب على هذا الفراق أن شيئًا ما يموت بداخله."[4]

ويقول ابن القيم :وأما عشّاق العلم فأعظم شغفًا به وعشقًا له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر، حتى إنهم كانوا يتمنون أن يكونوا بين كتبهم في الجنة[5].

وهذه المقولات يجب التوقف عندها، إذ ليس المراد منها التأكيد على أهمية القراءة، وتأكيد دور المعرفة في حياة الإنسان، وإنما تأكيد العلاقة القوية التي تؤديها في حياة قارئها.

---

[1] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 138.

[2] بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 38.

[3] فهد العتيق، البيلومارين: العرب والغرب وهوس الكتب، مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، 2005م، ص 27.

[4] فهد العتيق، البيلومارين: العرب والغرب وهوس الكتب، مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، 2005م، ص 27.

[5] فهد العتيق، البيلومارين: العرب والغرب وهوس الكتب، مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، 2005م، ص 30.

ISSN : 2410-1818

والجاحظ يمثل ظاهرة إيجابية في علاقته بالكتب، وهي تختلف عن ظاهرة البيليومانيين (مرض هوس الكتب) الذين تعلقوا بالكتب، دون إحيائها والتفاعل معها، وجعلها شيئاً ثميناً يعامل كالأصدقاء والأقران، والنظر إليها في سياق اجتماعي يعلي منزلة قرائها بين الناس، ويملأ أوقاتهم، ويزيد من ثروتهم المعرفية والاقتصادية، وهي ظاهرة لها أثرها على تأمين مستقبل الأسرة والأبناء، ولها أثر شرعي في استمرار الأجر بالانتفاع إلى يوم القيامة بما يكتب، وهي وسيلة حضارية أسهمت في تشكيل وعي عربي وإسلامي تجاه الآخر.

واستعان كثير من الباحثين بالمنهج الظاهراتي "الفينومينولوجي" في كشف الظواهر والعلاقات البشرية ومواقف العلماء من الظواهر المختلفة "قراءة ظاهراتية للصورة الكونية في شعر الصعاليك رانيا العرضاوي وغيرها الكثير.[1]

وكذلك طبق ذلك المنهج على دراسة "الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة: دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ"[2]وبينت المؤلفة "تأثير أسلوب الظواهر في تعبير الجاحظ وتصويره لظاهرة البخل أبلغ تأثير وأجمله وأدقه؛ إذ جمع بين أسلوب المؤلف في كشف الظواهر، وأسلوب النص في التأثير في المتلقين بهذه الظواهر. اقتراب ظاهراتية الجاحظ من الإقناع والتأثير والحجاج، وهي الوسائل التي تقوم عليها البلاغة الجديدة"[3]ولم تتطرق المؤلفة لموقف الجاحظ من الكتاب.

أما ما يتعلق بتطبيق المنهج الظاهراتي على موقف الجاحظ من الكتاب فلم أجد ما يتعلق بذلك في مصادر البحث العربية.

تمهيد: مقدمة الكتاب في عصر الجاحظ

،يعد الكتاب من الأمور المستجدة على حضارة العرب بوجه عام، حيث إن ثقافتهم معتمدة على الجانب الشفهي ويعد انتشاره أمراً مستغرباً نوعاً ما، وتأثيره على فئة محدودة في المجتمع، لصعوبات النسخ والتأليف والترجمة، وغير ذلك من الظروف المادية التي تحول بين انتشار الكتاب وسهولة الحصول عليه، فلم يصل إلينا قبل عصر الجاحظ وصف للكتاب من قبل أفراد المجتمع، أو وصف لمجتمع النساخين والوراقين بصورة كبيرة تجعلهم جزءاً من مكونات المجتمع.

وصور الجاحظ مجتمع الكتاب وأثرهم في التصحيف والتزوير، فنظرته تجاههم يشوبها الخوف والشفقة على الكتب من التغيير والتشويه، وبين الهاشمي أن الجاحظ يسخر من النساخين المحرفين،

[1] رانيا العرضاوي، قراءة ظاهراتية للصورة الكونية في شعر الصعاليك، النادي الأدبي الثقافي بجدة: مجلة جذور، 2021م، العدد 62، ص 85.

[2] هند مصطفى أحمد قناص، الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة: دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ، جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز: مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية، 2024م، العدد 19، ص 425.

[3] هند مصطفى أحمد قناص، الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة: دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ، جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز: مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية، 2024م، العدد 19، ص 428.

ISSN : 2410-1818

وذلك في تعليقه على نقل ياقوت الحموي في بداية كتابه (معجم البلدان) لقصة تحكي أن الجاحظ " صنف كتاباً وبوبه أبواباً فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء. فأحضره، وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتها -أعمى الله عينيك- وكان لها أذنان فصلمتهما -صلم الله أذنيك- وكان لها يدان فقطعتهما -قطع الله يديك-حتى عد أعضاء الصورة فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله."[1] ورغم أن الجاحظ عرف بسخريته إلا أنه في هذا الموقف لم يكن ساخرا، بل دعاؤه على التحريف حقيقة، حيث إن قوة علاقته بالكتاب تجعل الجاحظ يغضب من ذلك المصحف، وغيره من الحساد والمزورين الذين يحولون بين الجاحظ وكتبه، وهذه المواقف تبين أن هناك مجتمعا جديدا بدأ يتشكل في المجتمع الإسلامي، وهو مجتمع الكُتّاب الذين يُعدّون مجتمعاً موازياً لـ المجتمعات الأخرى كمجتمع الشعراء والعلماء وأصحاب الصناعات المختلفة كالحدادين والنجارين وغيرهم، ومثلما تجتاح تلك المجتمعات مظاهر سلبية مختلفة كالحسد والغيرة فالجاحظ يعري هذا المجتمع لأول مرة ويكشف تفاصيله، وقد كان لهذا المجتمع تأثيره على علاقة الجاحظ بالكتاب كما سيظهر ذلك في هذا البحث.

وبرزت في عصر الجاحظ قضية مقارنة الكتاب بغيره من أدوات المعرفة والبيان، ففي كتاب الحيوان، يرى الجاحظ أن أشكال التواصل كالمشافهة والحساب والإشارة مفيدة في نقل المعرفة كالكتب بحسب الظرف الذي يصادفه الإنسان، ويبدو أن الجاحظ يميل إلى تفضيل الكلمة المكتوبة على غيرها من وسائل التواصل، لكنه في "البيان والتبيين" يبدو أنه يميل للمشافهة بصورة أكبر[2]. ويقر بأن وضوح التعبير هو الوسيلة الأكثر ملاءمة: فالانتقال الصحيح للعلم يعتمد على اختيار الطريقة الأنسب وفق الظروف المتاحة. فليس هناك طريقة تناسب كل الظروف: «على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى. ولذلك فإن انتقال المعرفة لا يمكن أن يكون العامل المباشر في انتقال الأدب عبر الأجيال."[3]

وقد يكون موقف الجاحظ في تفضيل الكتب على غيرها من وسائل البيان موقفاً دفاعياً بسبب موقف الحساد والسراق منه، وأنه لا يمكن لأولئك السراق والحسدة أن يأتوا بمثل كتبه، وأنهم لم يتعلقوا بها مثله، وربما يكون التحسر على ضياع كتبه وانتحالها بعد أن عشقها وألفها، فهو من خلال وصفه الدقيق للكتب يكشف عن شيء من التحسر وألم الفقد لأمر عزيز، في مواضع عدة من كتبه.

[1] بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 48.

[2] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 143.

[3] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 144.

ISSN : 2410-1818

الفصل الأول: الإنسان والجماد:

دُرِست ظاهرة علاقة الإنسان العربي بالجماد في دراسات عدة، منها ما تعلق بموقف الشاعر من الأطلال، وما تحتويه من بيوت وخيام وأشجار وأحجار وغير ذلك، ومنها ما تعلق بجمادات أخرى من صنع الإنسان كقوس الشاعر الشماخ، ووصف ابن خفاجة الجبل، إلا أن الكتاب بطبيعته له تأثير أكبر على الإنسان من خلال تعدد خصائصه وأبعاده.

وبين أحد الدارسين أنّ الغالب على هذه الأعمال الدارسة لحضور الجمادات في الثقافة العربية والأدب، هو وصف تلك الجمادات وتباين لأنواعها وأوصافها وفوائدها دون دراسة العلاقة التي يكون فيها الأدب شريكًا في إنتاج معنى الأشياء، وليس مجرد الوصف أو الإخبار عنها، لذا يجب على الأدب البحث عن الأشياء الضائعة من العمران والنسيج والتحف التي حفظها الأدب وعلوم اللغة من خلال الوصف والتسمية والنقد، فكثير من الأشياء فقدت إلا أن النصوص العربية حفظتها وقيدتها وهذا جهد مشكور إلا أن على الدارسين في وقتنا المعاصر البحث في "سجلّ الحياة الاجتماعيةّ للأشياء: كيف صُنعت وأُهديت وبيعت وقوُّمت وزيُفّت واشتهُيت ووُرِثت، أي سجلّ الأشياء وهي تعمل في المجتمع لا وهي معروضة خلف زجاج المتاحف"[1]، كما أن على الدارسين العناية باللغة العربيةّ نفسها، و بمعجمها النقديّ الحريفّ والصناعي، حيث ينتقل الدارس من استعارة الحياكة والبناء إلى منهجٍ في التحليل ليرى انعكاس تلك الحرف والصناعات على الفعل اللغوي.[2]

والوقوف على نظرة الجاحظ للكتاب وعلاقته به، وتعدد وظائفه لديه، يندرج في ذلك الباب، والبحث عن علاقة الإنسان بالأشياء موضوع جديد في بابه، يستدعي التكاتف من قبل الباحثين لسبر أغواره، واكتشاف أسراره ومن ذلك دراسة عمرو منير [3] الذي درس كتاب الجوبري " المختار في كشف الأسرار" وبين أن من العلماء من يبين" أنّ قيمة الشيء تُصنع في رحلته بين الأيدي والأسواق، فإنّ الجوبريّ يرينا الوجه الآخر لهذه الحقيقة: أنّ من أتقن قراءة علامات القيمة أتقن تزييفها، وأنّ تاريخ الزيف من ثم فصلٌ لا يستُغنى عنه في تاريخ القيمة نفسها."[4] والجاحظ من خلال علاقته بالكتاب يبين قيمة الشيء (الكتاب) أثناء رحلته بين أيدي الكتاب والنساخين والوراقين، إلى رجوعه على صدره، وهذه الدراسة تسعى لتسليط الضوء على هذه الرحلة، لأهميتها في فهم موقف الجاحظ من الكتاب، وأثر ذلك على القراء من بعده.

---

[1] بلال الأرفه لي، حين تنطق الأشياء: الأدب العربي والتراث المادي، المركز: مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 160.

[2] بلال الأرفه لي، حين تنطق الأشياء: الأدب العربي والتراث المادي، المركز: مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 160.

[3] عمرو عبد العزيز منير، الذهب المزوَّر واللؤلؤ المصنوع في كتاب المختار في كشف الأسرار للجوبري، مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 218.

[4] بلال الأرفه لي، حين تنطق الأشياء: الأدب العربي والتراث المادي، المركز: مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 162.

ISSN : 2410-1818

ونجد ذلك في وصف الجاحظ للكتاب وبيان موقفه منه، فيظهر من خلال تعامله معه أنه لا يتعامل معه بوصفه جماداً أو ورقاً ميتا، وإنما بوصفه جليسا وأنيسا وصديقا وصاحبا ومعلّما، والإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وقد تعامل الجاحظ معه بوصفه إنسانا يصادقه ويسامره، مما زاد من تأثيره عليه، وحتى نفهم تأثير الكتاب عليه لابد من معرفة العلاقة الحقيقية به، ومن ذلك قوله:" ومَنْ لك بزائرٍ إن شئتَ كانت زيارته غبًّا ووَرْدُه خمسًا؟ وإن شئتَ لَزِمَك لُزوم ظِلِّك وكان منك كبَعْضِك... والكتاب هو الذي إن نظرتَ فيه أطال إمتاعك وشحَّذ طباعك وبَسَطَ لسانك وجوَّد بيانك وفخَّم ألفاظك وبجَّح نفسك وعمَّر صدرَك. "[1]

كما نرى أن الجاحظ يستدل على قيمة الكتاب غير المادية من مواقف الآخرين، ويستأنس بها، ويقوي حجته، وأثر ذلك الشيء (الكتاب) حين يتخذ كائنا اجتماعيا لا شيئا جامدا، يصادق الإنسان ويلازمه في الجد والهزل، ويتأثر به.

كما نجد أن وصف ظاهرة التعلق بالكتب والاندماج معها تستمر في عصور لاحقة للجاحظ لتؤكد على هذه العلاقة الوطيدة مثل ماورد في كتب اللطائف والمجاميع الأدبية ككتاب المبرد والحصري[2] والثعالبي[3] كتاب الغزولي مادحا الكتاب "وخير جليس في الأنام كتاب، هو النديم الكريم والخدن الأمين، البريء من الذنوب السليم من العيوب، الذي إن أدنيته لم يباعدك، وإن أقصيته لم يعاودك، وإن واصلته حمدته، وإن هاجرته أمنته، وإن استنطقته أسمعك، وإن استكفيته أقنعك وإن استنكفته كف وإن استثقلته خف"[4].

كما أن كل علاقة يقيمها الناس نجد لها مؤيدين ومعارضين لاسيما حين تكون العلاقة وطيدة ومؤثرة كالعلاقة مع الكتاب، نرى آخرين في ذلك العصر يعيبونها وينقصون من دورها، وقد استعرض الجاحظ وغيره تلك الأقوال دون تفنيدها والاكتفاء بذكرها، إذ المراد بها الكتب التي لا تستند إلى عالم يوضح مستغلقها، وتفهم بطريقة خاطئة، أو يكون محتواها مخالفا، ومثلما أحب الجاحظ الكتب وفضلها أحيانا على المشافهة والكلام، إلا أن بعضهم عاب الكتاب لأنه" علم لا يعبر معك الوادي، ولا يعمر بك النادي...وقيل :من تأدب من الكتاب صحف الكلام، ومن تطبب منه قتل الأنام، ومن تنجم منه أخطأ في الأيام، ومن تفقه منه غيّر الأحكام .قال الشاعر:

ليست علومك ما حوته دفاتر... لكن علومك ما حوته صدور"[5].

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 18.

[2] كتاب زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، ج1، ص184

[3] أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، اللطائف والظرائف، دار المناهل: بيروت، 1985م، ص 66.

[4] علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، 1982م، ج1، ص 68.

[5] أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، اللطائف والظرائف، دار المناهل: بيروت، 1985م، ص 66.

ISSN : 2410-1818

الفصل الثاني: أبعاد موقف الجاحظ من الكتاب في ضوء المنهج الظاهراتي:

كانت علاقة الجاحظ بالكتاب علاقة ذات أبعاد مختلفة، متعلقة بدور الجاحظ العلمي والشرعي ومكانته وتأثيره في الحركة العلمية في عصره، ودوره التربوي والتعليمي، ومتعلقة كذلك بجوانب نفسية خاصة به، وكان للعوامل الأخرى الاجتماعية والحضارية والاقتصادية أثرها في تكوين علاقة مميزة بين الجاحظ والكتاب، وتشكل ظاهرة لها أبعادها المختلفة، لا يمكن أن نعزلها عن بعضها، فكل بعد أثر في الآخر، وأحكم تلك العلاقة وشد وثاقها.

وسأبين علاقة الجاحظ بالكتاب من خلال تلك الأبعاد، في ضوء المنهج الظاهراتي، حيث لا أنطلق في بيان تلك العلاقة من عدد كتبه، وشرحها، وموقفه من قضايا الحسدة من الكتاب والمزورين، وآرائه فيهم، وإنما من خلال إشاراته المتفرقة في كتبه عن موقفه النفسي وآرائه الخاصة نحو الكتاب، وأثرها عليه، وفق المنهج الظاهراتي.

1-الموقف من فوائده المعرفية(معلومات)

لعل أشهر المقولات التي بين الجاحظ فيها فضل قيمة الكتاب المعرفية مقولته: " والكتاب وعاءٌ مليء علماً"[1]، والتي استشهد بها كثير من الكتاب في عصره حتى يومنا هذا.

وبين في مواطن أخرى فضل الكتاب من جانب حفظه للعلم عبر العصور، وفضله في محاربة آفة النسيان فيقول:"ولولا الحِكَم المحفوظة والكتب المدوَّنة لبطل أكثر العلم، ولغلَبَ سُلطان النِّسيان سُلطان الذكر."[2]وهذه الفوائد حاضرة في ذهن الجاحظ ووجدانه، مما يقربه ذلك إلى الكتاب، وينظر إليه بإجلال، ففي مفارقته يكون الابتعاد عن العلم، والانقطاع عن العصور، واضمحلال الحضارة والتقدم، ولا يمكن تصور علاقة الجاحظ بالكتاب دون ذلك.

ويبين الجاحظ دور الكتاب في حفظ العلم رغم تلاعب الوراقين والنساخ وادعاء بعضهم أن تلك الكتب لهم [3]، وهذا التلاعب الذي عايشه الجاحظ رغم سوئه إلا أن له يفيد في بقاء العلم والحفاظ عليه لاسيما ما كان من علوم الأولين، وكذلك ما جاء من قبل الأمم الأخرى كالفرس والهنود وغيرهم، وبين الجاحظ أهمية التأكد والحذر من تلك الانتحالات والتدليس في بطون بعض الكتب، ورأى في الكتاب حارسا لتلك التخبطات العلمية، ووسيلة للهروب من الفوضى العلمية والفساد العلمي لدى النساخين والوراقين، مع أهمية التدقيق والفحص لها.

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 19.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 20.

[3] بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 39.

ISSN : 2410-1818

ويشير الجاحظ في الحيوان أن الكتاب" أحفظ لما استُحفظ من الآدميّين، ومن الأعراب المعربين، بل من الصّبيان قبل اعتراض الاشتغال، ومن العميان قبل التمتّع بتمييز الأشخاص، حين العناية تامّة لم تنقص، والأذهان فارغة لم تنقسم، والإرادة وافرة لم تتشعّب، والطّينة ليّنة، فهي أقبل ما تكون للطبائع، والقضيب رطب، فهو أقرب ما يكون من العلوق، حين هذه الخصال لم يخلق جديدها، ولم يوهن غربها".[1] وهذه الملحوظة تبين الثقة والإعجاب بقدرة الكتاب على الحفظ مقارنة بعقل الإنسان وذاكرته، رغم ما عرف به الجاحظ شخصيا من قوة الحفظ،[2] والانبهار يزداد كلما اطلع على المزيد من الكتب، ومثل هذا الشعور مما يزيد من قوة علاقته بها.

ويشيد الجاحظ هنا بدور الكتاب في التحصيل لاسيما فيمن فاته قطار التعلم في الصغر، رغم أهمية ذلك، إلا أن الكتاب يستطيع أن يعوض تلك الفرصة لمن فاتته، ويقول في ذلك: "وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمول ذكره وأيام حداثة سنه ولولا جياد الكتب وحسنها وبينها ومختصرها لما تحركت همم هؤلاء الطلب العلم ونزعت إلى حب الأدب وأنفت من حال الجهل."[3]

ويقدم الجاحظ نصائح عملية لمن يريد الاستفادة الكاملة من الكتاب من الناحية العلمية، فعلى القارئ الحصيف ألا يكتفي بصفحات معينة من الكتاب، أو يأخذ منه الأفكار التي تعجبه ويترك الباقي، بل عليه أن يكون مجتهدا في قراءة الكتاب بأكمله "ولذلك فهو يدين الصنف الثاني الذي يهدف من قراءة الكتاب بتقييم مغرض وبقصد بعيد عن غايات الحق والاجتباء له بمقاييسه المنصفة في المطالعة والقراءة وهذه المسألة"[4].

إضافة إلى ذلك فالجاحظ يشيد بفوائد الكتاب الجمة فهي مصادر الحكمة، والتجارب النيرة، والأخبار النافعة التي يستفيد منها المعاصرون، وقراءتها تمنعهم من الوقوع في أخطاء من سبقهم، متعظين بها،[5]ونجد الجاحظ لا يركز فقط على المعارف و المعلومات بل يشيد بقدرة الكتاب بالتأثير النفسي من خلال القصص والتجارب والخواطر والرأي والحكمة، وكذلك قوة العقل وأساليب التفكير المتجددة عبر العصور، إذ يقول: "ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها... لما حسن حظّنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قدر قوّتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسّنا،

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 31.

[2] شفيق جبري، الجاحظ معلم الأدب والعلم، دار المعارف: القاهرة، 1948م، ص 37.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 60.

[4] بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 46.

[5] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

ISSN : 2410-1818

وتشاهده نفوسنا، لقلّت المعرفة، وسقطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيما، والخاطر فاسدا، ولكلّ الحدّ وتبلّد العقل."[1]

2-الموقف من فوائده الشرعية والوعظية:

بين الجاحظ أن خير الكتب "وأكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعاً، كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كلّ حكمة، وتعريف كلّ سيّئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصّحف، والمهارق والمصاحف. وقال الله عزّ وجلّ (الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ)، وقال: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ".[2]

كما يشير الجاحظ إلى القرآن الكريم في كونه خير ما يُلتجأ إليه عند الشعور بالضعف واستفحال المعصية، "ويجمع الجاحظ ضمنيا كل الكتب، سماوية أو أرضية، ضمن إطار مفاهيمي واحد، ومن هنا يصبح القرآن الكريم أفضل كتاب، لا الكتاب الوحيد. ومن خلال تأسيس القيمة الثقافية للكتاب، يصف الجاحظ فوائد الكتاب في تطوير مجتمع صحيح ناضج...فهو عماد الروح، وأصل لكل خير، وأساس للنظام الاجتماعي"[3] فهو من الكتب الأنيسة للإنسان وبديلاً عن البشر حين يضيق المرء بذنوبه.

ورأى بعض الكتاب أنه "ورغم ما يمكن أن يعطيه أحياناً من تفسيرات تشوب مظهرها نبرات أخلاقية تستهدف الموعظة كأن يقول عنه: (خيراً من جليس السوء) وغيرها، أو ما يتقصده من حكمة مثل قوله: (لم أر أوعظ من قبر ولا أمنع من كتاب ولا أسلم من الوحدة) فالمعيار المقصود هنا هو التوحد مع الكتاب أو الانفراد به وما تقتضيه حاجة القارئ والمطالع"[4]فهو يقصد صراحة الجانب الأخلاقي بوضوح، ويجعله من ضمن مواقفه من الكتاب وأبعاده، فالبعد الوعظي والروحاني من الجوانب المهمة التي كان الكتاب يحرصون على تدوينها ونشرها بين القراء لما فيه من إصلاح وتبليغ رسالة الإسلام، وربما نرى ذلك في كتب معاصريه مثل الزهد لـ الإمام عبد الله بن المبارك (ت 181 هـ)، والزهد لـ الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) وغيرهما.

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 58.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 59.

[3] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 132.

[4] بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 45.

ISSN : 2410-1818

ويؤكد الجاحظ على قيمة الكتاب الوعظية من خلال مواقف أبناء التابعين رضي الله عنهم، ويقوي حجته في أثر الكتاب الوعظي بالبرهان الواقعي والعملي فهذا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب "لا يُجالس الناس، فنزَلَ مَقبرةً من المقابر، وكان لا يزال في يدِهِ كتاب يَقرؤه، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: لم أرَ أوعظَ من قبرٍ ولا آنسَ من كتابٍ ولا أسلمَ من الوِحدة."[1]فالكتاب هنا كان له دور في إيصال رسالة القبر الوعظية، وأنه خير معين حين ينقطع المرء إلى القبر.

والجاحظ يؤكد أن الله جل جلاله قد أعظم قدر الكتب، حيث جعل كلامه الكريم يكون على شكل كتاب[2]، وحفظه وإجلاله إجلال لله سبحانه وتعالى، وفي قراءته وتأمله أجر عظيم.

وأشار إلى أن الكتب تترك أثرا كبيرا على قارئها "وجُملة الكتاب وإنْ كثُر ورَقُه فليس مِمَّا يُملُّ؛ لأنه وإن كان كتابًا واحدًا فإنه كُتُبٌ كثيرة في خِطابه والعِلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسِّياسة والتدبير."[3]واستشهد الجاحظ بكثير من الأقوال من العلماء والفقهاء في الدعوة إلى ضرورة اعتمادهم على الكتب في تحصيل العلم الشرعي، الذي يستعان به في تطبيق الأحكام الشريعة وإصلاح القضاء، وإتمام العبادات والأخلاق.

وكثيرا ما قرن الجاحظ الكتاب بالوعظ والإرشاد وصلاح الأخلاق لما يمتاز به الكتاب من الانقطاع عن الناس لاسيما من يلهون عن العبادة والطاعات، فالكتاب بما يحتويه من حكم ومواعظ خير وسيلة لتهذيب النفس وصلاح الأخلاق، لاسيما أن الجاحظ صرح كثيرا بأن الكتاب يكون مع الإنسان ليلا ونهارا، ويمكن حمله في أي مكان، ولا يلهيك عن طاعة، ولا يدعوك إلى محرم.

وأشار الدارسون إلى أن التعلق بالجماد والمشاركة الوجدانية معه، يتعلق بأدب الوعظ، وتذكر اليوم الآخر والخوف من الموت، سواء كان ذلك شعراً أو نثراً ففي قصيدة وصف الجبل لابن خفاجة تتداخل تقنيات أدب الوعظ في النص الشعري:"وذلك عندما يدير الشاعر حواره مع الجبل فيجعلنا نخرج بحتمية الموت والرحيل.. إن الخوف من الموت قد تعمق داخله، وصار هاجسه الأعظم حتى امتزجت هذه الفكرة في عقله الباطن، فصار يبثها في ثنايا نصه بوعي، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه قال قصيدته تلك في رحلة؛ فإن المخاوف والهواجس من الموت تتضاعف "فالإقبال على المجهول يفرض على النفس صنوفاً من محاورات ذاتية يغلفها الخوف" إن التوتر والقلق من المصير يصيب الإنسان بحالة من الهلع."[4]

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 59.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 22.

[4] محمد بن هادي الشمراني، تداخل الأنواع في شعر ابن خفاجة الأندلسي: قصيدة وصف جبل أنموذجاً، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، 2019م، العدد 38، ص 1705.

ISSN : 2410-1818

كما أن الشعور بالوحدة وعدم وجود من يذكره بالوعظ ويرشده إلى التوبة والرجوع إلى الحق دافع للأديب أن يبحث عن بديل يسد ذلك الفراغ، ويعيد للذات توازنها، فالجاحظ استعان بالكتاب ليدله على التوبة والرجوع إلى الله، وابن خفاجة رأى الجبل شيخا وقورا يستند إليه الناس بمختلف همومهم وآثامهم ليكون "لهم خير جليس، وأصدق أنيس، ثم يرحلون، فهناك قاتل خاف من القصاص، والأخذ بالثأر، فلاذ بالفرار، واستقر بداخله، وذاك حزين أوّاه تائب، أرهقته ذنوبه؛ ففر منها، ومن أرض المعاصي إلى هذا الجبل، حيث ذاق لذة النسك، وصفاء التعبد...إن الصور التي يرسمها لهذه الأنواع من الناس، تحكي أمانًا بعد قلق، وهدوءًا بعد صراع، وكأن الجبل يرسل إشارة خفية للشاعر "ابن خفاجة" مفادها، نم وقرّ عينا، فغيرك كثير، مر من هنا وغادر."[1]

وهذان البعدان المعرفي والشرعي للكتاب يعدان من الأبعاد التي ركز عليها الدارسون الذين درسوا علاقة الجاحظ بالكتاب والمعرفة بوجه عام، حيث يتقارب موقفه مع بقية مواقف العلماء الآخرين بالكتاب، إلا أن الجاحظ امتاز عنهم بمواقف أخرى من جوانب متعددة، كما نراه في المواقف التالية.

3-الموقف من فوائده الاقتصادية

لا يركز الجاحظ في موقفه من الكتاب على الجانب الشرعي والحضاري والثقافي فحسب وإنما يترابط معه باعتباره مادة ثقافية حسية وفاعلة في المجتمع، حيث يشمل الكتاب جميع مظاهر الحياة العامة من مأكولات ومشروبات وملابس، والنشاطات الاجتماعية، والحرف، وأنواع الطبقات الاجتماعية والمهن المختلفة فكتبه لا تنقل صورة محددة من الناس كالعلماء والكتاب، بل ينقل كل ما يدور في المجتمع.

وهذه المهن التي يقدمها الجاحظ ويستعرضها لا تتعدى فقط المهن الصناعية وإنما تتعدى إلى المهن الإدارية والقضائية، ونراه لا يبين موقفه ويتخذ رأيه نظريا فقط، وإنما يعتمد على التجربة والبرهان المرئي فيما يذهب إليه، ومن ذلك قوله: "وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاما، وهو لا يعدّ فقيها، ولا يجعل قاضيا، فما هو إلّا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمرّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العمّال، وبالحريّ ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسير، حتّى يصير حاكما على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان."[2]

[1] محمد بن هادي الشمراني، تداخل الأنواع في شعر ابن خفاجة الأندلسي: قصيدة وصف جبل أنموذجاً، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، 2019م، العدد 38، ص 1720.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 60.

ISSN : 2410-1818

ويدافع عن موقفه المادي الناتج عن انشغاله بالكتب، وترك أبنائه دون إرث مادي كالعقار وغيره، ويعلل نفسه بقيمة الكتاب من الناحية المادية، من حيث كونه لا يخسر صاحبه ولا يكلفه عناءً مادياً كالجباية والصيانة وغير ذلك، ويرى أنه: "خير الميراث لأنه يكسبك المنفعة المعنوية والمادية، فالمعنوية مثل جلب الثناء الحسن والمحبة والأجر العظيم في الآخرة."[1]

أما الفوائد المادية المجنية من الكتب فكثيرة منها أنها كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا ضريبة (حق السلطان). ولا تنقص قيمتها بالأخذ منها، ويستمر الثناء والمنزلة العالية لحاملها وقارئها.[2]

ويبين الجاحظ أن من يورث أبناءه الكتب فهو يورثهم علما أو أداة للعلم تكون سببا لتعلم أمر آخر، وهنا الجاحظ يدعو إلى عدم إلزام الأبناء بتخصص علمي محدد، بل لكل يختار ما يناسبه من مجال علمي أو حرفة ما، والكتاب يسهل ذلك مهما كان التوجه، فالكتاب يهيئ الأبناء للجد والاجتهاد والعمل في شتى المجالات، فهي رسالة من الآباء للأبناء تحببهم لطلب العلم والعمل[3]، فهو يؤكد أن الكتب كبقية الحرف والصناعات التي يعلمها الآباء لأبنائهم، تكون سببا للانتفاع بها مباشرة أو قد تكون سببا للانتفاع بها بعد حين.

وفي موضع آخر يؤكد على أن توريث الكتب يختصر الوقت والجهد، فالكتب تحتاج لوقت طويل للحصول عليها، وكذلك تحتاج إلى مال، وعندما يجدون تلك الكتب عندهم مما ورثوه من أبيهم، فهذا يساعدهم على تحقيق المكانة العلمية والرخاء الاقتصادي.

والجاحظ من خلال تعلقه بالكتاب لا يجعل هذا التعلق منفصلاً عن حياته وحياة أسرته الاقتصادية، فهذا الانعزال والتعلق بالكتب لا يعني الانعزال عن حياة أسرته وتأمين مستقبلهم، فهو يصور هذه الظاهرة (التعلق بالكتب) أنها ترضي جميع الأطراف (نفسه-أسرته) حيث يستفيد منها في حياته وينفع بها أسرته أثناء وجوده معهم، وحتى لو انعزل عنهم، فيكسبهم علما ومالا من تكسبه بتلك الكتب وتدريسها، وهي تنفعهم بها بعد مماته، حين يورثها لهم ويتعلمون منها بطريقة مباشرة وغير مباشرة، كما ذكر سابقا.

ويشير إلى أن توريث الكتب لا يفرق بين الموروثين مثل بقية الموروثات كالأموال والضياع، وكذلك لا تجب فيها بها زكاة، ولا تجلب الحسد، ولا تورث الشحناء ولا تتطلب واجبات على أبناء

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 67.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 67.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 68.

ISSN : 2410-1818

المجتمع،[1] وهي أمور نفسية خفية فكثير من الناس قد يترك التجارة خوفا من السرقة، أو كثرة الضرائب والزكاة وغير ذلك من الأمور التي لا يتحملها كثير من الناس، لأنها تتطلب تفكيرا واستعدادا ذهنيا وجسديا.

4-فوائد تربوية

أشاد الجاحظ بمزايا الكتاب التربوية، فهي تجلب للمرء المحبة التي تغرس في أبنائه الذكر الحسن، وترزقهم الثواب الحسن في الدنيا والآخرة، بخلاف الموروثات المادية الأخرى التي يكون نفعها ماديا فقط، دون أن تؤثر في أخلاق الورثة والأجيال اللاحقة ومحبتهم" وكانوا يقولون: خير ميراث ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجّل لك حلاوة المحبة، وبقّى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه. وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة."[2]

ويبين أن أثر هذه الكتب على العقل من نواحي عدة قد يكون أشهرها زيادة العقل ونمائه، وجعله متهيئا لاكتساب المزيد، ويضيف فوائد تربوية أخرى عايشها من خلال خبراته التعليمية فيصرح بأن "هذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه. وتنفي الخبث عنه. وتفيدك العلم. وتصادق بينك وبين الحجّة، وتعوّدك الأخذ بالثقة. وتجلب الحال. وتكسب المال."[3]

وعبارة" تداوي العقل وتصلحه" تبين أن كثيرا من الآفات التي تصيب المرء من تعصب وتكبر وفجور لا تشفى إلا من خلال الكتب، التي تكسب الإنسان القدرة على التخلص من تلك الآفات التي يجلبها الشيطان، ولا يكاد ينجو منها إلا القليل، والكتب تربي قارئها على الاستشهاد بالحجة والمنطق، والبعد عن إطلاق الأحكام واتباع الأهواء.

ومن جانب آخر فالكتب معينة للتخلص من حالة الشتات الفكري التي تعتري طلبة العلم، لاسيما من عايش الجدالات العلمية بين الفرق والنحل المختلفة، المزدهرة في عصر الجاحظ من معتزلة وإمامية وغيرهما من الفرق الإسلامية، وكذلك من الديانات الأخرى من مسيحية ومجوسية وغيرهما، والإغراق في تلك النقاشات قد تؤثر على عقل الإنسان وفكره، وخير ملجأ بعد الله لمثل ذلك الخبث هو قراءة الكتب من وجهة نظر تربوية جربها الجاحظ ودعا إليها.

---

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 68.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 67.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 67.

ISSN : 2410-1818

ويحذر الجاحظ من الاعتماد الكلي على الكتاب لتعلم اللغة والبلاغة، إذ يرى الجاحظ أن ثقافة الكتاب تميل نحو التكلف، لاسيما من يعنى بالترجمة والاعتماد على كتب غير عربية، ولذا فالجاحظ يعنى بأساليب تربوية شاملة لا يركز على جانب دون آخر، فالكتاب وحده لا ينشئ بلاغة دون الوسائل الأخرى مثل: الحفظ والمشافهة والمدارسة وغير ذلك.[1]

وحين يقارن الجاحظ من ناحية تربوية بين تعلم العلم من خلال المشافهة والقراءة، فقراءة الكتب عنده أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم؛[2] ويبرر ذلك أن مقابلة طلبة العلم قد يولد التعصب والتظالم وحب الغلبة والظهور لأن الإنسان بطبعه ضعيف، ويميل إلى تأييد رأيه، ومواقفه السابقة، وآرائه التي تربى عليها، بخلاف التعلم من خلال القراءة والتأليف، حيث تخف حدة المواجهة والانتصار للذات، وهذه الملحوظات استقاها الجاحظ من قراءاته، وكما عرف عن الجاحظ حبه للتجربة والإثبات بالمشاهدة فكثيرا ما شاهد مثل تلك الأمور في حياته العلمية، فالنقاشات العلمية التي رآها في حياته لم تسلم من حب الذات والانتصار للنفس، وتغلب الصراع الشخصي على التجرد والإنصاف.

ويبين الجاحظ سمات الكتاب بوصفه أداة تربوية تقرأ بكلّ مكان، وزمان[3]، كما أن أثرها يمتد لأزمنة طويلة وأمصار عديدة لا يستطيع العالم أن يصلها بنفسه، كما أن عمره محدود لكن الكتاب ليس له عمر محدد فقد يمتد لآلاف السنوات بإرادة الله، وهذا ما جعل الجاحظ يفضل الكتاب على صاحبه، حيث تطال بركته الزمان والمكان.

ويبين في كتابه البيان والتبيين أنواع الوسائل التي يستعين بها الإنسان في التبيين والدلالة كالإشارة والعقد والحساب واللسان، ويرى أن من أهمها الخط، فقد أقسم الله به، ويفضله على اللسان في مواضع من الكتاب إذ هو أبقى أثرا، واللسان أكثر هذرا واللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحائن، مثله للقائم الراهن. والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، ويبرز البعد التربوي هنا في أن الكتاب أدق وأقل خطأ من اللسان والمشافهة؛ فاللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره."[4].

---

[1] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 139.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 58.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 58.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1418هـ – 1998م، ج1، ص 85.

ISSN : 2410-1818

ومن استنباطاته التربوية التي رآها في أثر الكتاب على السلوك أن ملازم الكتاب يحفظ نفسه، ويقربها للفضائل، ويبعد بها عن الأخلاق المذمومة إذ يقول: " ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلَّا مَنعه لك من الجلوس على بابك والنَّظر إلى المارَّة بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوق التي تلزم، ومن فضولِ النظر ومُلابَسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم السَّاقِطة ومعانيهم الفاسِدة وأخلاقهم الرديَّة "[1].

5- الكتاب بوصفه ملاذاً نفسياً في وعي الجاحظ:

ويكشف الجاحظ موقفه من الكتاب من وجهة نفسية فهو لا يرى في الكتاب وسيلة لنقل المعرفة فحسب، بل له دور في الاستقرار النفسي للإنسان، فهو معين له في الوحدة التي ترهقه عبر العصور، وعلاج لكثير من الأمراض النفسية التي تنشأ من الوحدة، فهو كالصديق الصادق، الذي يطاوع الإنسان ويسايره، ويخفف من وحدته.[2]، وعايش الجاحظ بصورة خاصة هذه التجربة كبقية العلماء فقد رأوا أن غربتهم وانعزالهم عن الناس تبددت بالكتب، وكانت لهم خير أنيس.

ولا يكتفي بأنها تغنيه عن الوحدة فقط فهي" نِعْم الذُّخر والعقْدة والجليس والعمدة"[3] فالكتاب عنده يجمع بين القيمة الاقتصادية والمعرفية والاجتماعية وهذا مما يسهم في تقوية الموقف النفسي من الكتاب، وتجعله داعما لقارئه وخير رفيق له، وتعوضه حين يغيب السند الاقتصادي والاجتماعي من البشر.

ويرى أنه" ونِعْم النشرة ونِعْم النُّزهة ونِعْم المشتغَل والحِرفة،[4] وربما لا يكون المشتغل المقصود هنا الجانب العملي(الشغل) بل هو الإلهاء النافع، الذي ليس بالضرورة أن يكون نفعيا ويقدم فائدة معينة (حسية أو معنوية) فالإشغال أقرب ما يكون نفسيا يلهي الإنسان عن سفاسف الأمور ويشغل الإنسان عن التفكير السلبي ويرى أن الكتاب أنه "نِعْم الأنيس ساعةَ الوحدة، ونِعْم المعرفة ببلاد الغُربة" وقد يمتد مصطلح الغربة عند الجاحظ لتكون أشمل من الغربة الحسية فقط بل تشمل الغربة المعنوية التي يعانيها العلماء والمفكرون عادة.

وحضور الكتاب ومعايشته مرتبطة بقصدية القارئ وإرادته، فالجاحظ يتيح لنفسه تشكيل الشيء (الكتاب) ويعطي لنفسه الحرية في تشكيله بحسب المزاج فحين يريده واعظا سيكون واعظاً، وإن أراده لاه فسيكون أو عابدا أو مجرما، إذ يقول: "إنْ شئتَ كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ كان أبلغَ من سحبان وائل، وإن شئتَ سرَّتك نَوادِرُه وشَجَتْكَ مواعِظه، ومَنْ لك بواعظٍ مُلهٍ وبناسِكٍ فاتِك وناطقٍ

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 22.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 23.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

ISSN : 2410-1818

أخرس؟ "[1] فالجانب النفسي للقارئ عامل مؤثر في قوة العلاقة بين الكتاب وقارئه، حيث يتيح الكتاب لقارئه الحرية في اتخاذ آلية العلاقة الآنية حين التعامل مع الكتاب، بخلاف العلاقات الأخرى كالصديق أو الجار التي لا تتيح ذلك، إذ يشوبها هتك للسر، والظلم والعدوان، والجدال والمراء، والعناد، والملل، كما أن الكتاب قد يكون صديقا لكنه معلم خاضع لا يتكبر على المتعلم، ويكون له متوافقا وصابرا.

ومن الأوصاف التي أطلقها الجاحظ على الكتاب "بأنه لا ينام إلا بنومك" وهذا الوصف دلالة على التطور الوظيفي للكتاب من كونه ناقل معرفة إلى صديق مقرب، وقرين مصاحب للإنسان في حياته كلها حتى في النوم، ويضيف إلى ذلك قوله بأنه "لا ينطق إلا بما تهوى" [2] وهذا ملحظ نفسي مهم فطول العلاقة البشرية لا تكون إلا من خلال خضوع الآخر للأول، وهذا غير متحقق في العلاقة بين البشر في الغالب، لذا نرى بعضهم يلتجئ للجماد في تعويضه عن ذلك المبتغى الصعب، كما أن الوصف السابق يشير إلى أن الكتاب يتفاعل مع قارئه فهو ينام بنومه، ولا ينطق إلى بما يهوى، وهذا التفاعل الإيجابي يقوي العلاقة ويجعلها مستمرة.

وحتى تكتمل جوانب تلك العلاقة الناجحة بين الكتاب وقارئه، يبين الجاحظ سمات أخرى توثق تلك العلاقة بصورة أكبر فهو "يجمَعُ الأول والآخِر والناقِص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغثَّ والسمين والشَّكل وخِلافه والجنس وضِدَّه؟.. ينطِق عن الموتى ويُترجِم عن الأحياء." [3] فهو متنوع في وظائفه وأخباره، حتى يبعد السأم والملل عن القارئ، وقد أفاض الجاحظ في هذه المسألة في كتبه، من خلال التأكيد على ضرورة إيجاد السبل الكفيلة لمنع تسلل الملل إلى قلب صاحبه.

ويتحدث الجاحظ عن مزايا الكتاب من وجهات نفسية أخرى فهو "آمَنُ من الأرض، أعمُّ بيانًا ولا أحسنَ مُواتاةً، ولا أعجلَ مُكافأة، ولا شجرةً أطولَ عُمرًا، ولا أطيبَ ثمرًا، ولا أقرَبَ مُجتنًى، ولا أسرعَ إدراكًا.[4] فالكتاب يمكّن الإنسان من الوصول إلى ما يحتاج إليه من معرفة أو خبر أو حكمة بسرعة ويسر، دون الحاجة إلى البحث عن شخص يعلمه أو يخبره، وهذا وصف ظاهري لما يكنه صدر الجاحظ للكتاب، وكشف أسرار العلاقة بينهما، والمزايا التي لا يجدها الجاحظ إلا في الكتاب، وربما غابت عن علاقات البشر.

والجاحظ لا يجعل علاقته بالكتاب منفردة في العالم، فهو يبررها من خلال اطرادها عند جميع العلماء من عصور مختلفة، وحضارات متعددة، وهذا مما يقوي موقفه وقناعته تجاه فلسفته نحو

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 22.
[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 22.
[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 23.
[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 24.

ISSN : 2410-1818

الكتاب والانعزال معه، ولذا نراه يستشهد بأقوال علماء من مشارب مختلفة، ومن ذلك: "وقيل لبعض العلماء :ما بلغ من سرورك بأدبك وكتبك؟ فقال :هي إن خلوت لذّتي، وإن اهتممت سلوتي، وإن قلت : إنّ زهر البستان، ونور الجنان، يجلوان الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألحاظ؛ فإن بستان الكتب يجلو العقل، ويشحذ الذّهن، ويحيى القلب..."[1]

6-الموقف الاجتماعي

يرى الجاحظ أن الكتاب يعد ظاهرة اجتماعية لها دورها في المجتمع، فكما يحرص الناس عادة أن يكون لهم دورا في المجتمع من خلال إيجاد روابط اجتماعية من أصحاب ومساعدين ووزراء،[2]، إلا أن الكتاب-في نظر الجاحظ- ظاهرة توازي تلك العلاقات والروابط الاجتماعية، التي يستعين بها المرء في حياته الاجتماعية، وربما تفوق عليهم الكتاب بمزاياه، منها أنه "إن افتقرتَ إليه لم يحقِرْك، وإن قطعتَ عنه المادة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزِلْت لم يدَعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريح أعدائك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ متعلِّقًا منه بأدنى حبلٍ لم تَضطرَّك معه وحشةُ الوحدة."[3]

والجاحظ يشيد بدور اجتماعي آخر للكتاب وهو دوره في نقل الأخبار وتخليد الحوادث بين الأمصار، "وممّا يدلّ على نفع الكتاب، أنّه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرّقّة والموصل وبغداد وواسط، ما كان بالبصرة".[4]

ويرى أن الكتاب وسيلة لإعلاء شأن الخطاب والمحتوى، واستشهد على ذلك من قصة سليمان عليه السلام عندما قال:" اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ" فقد" كان عنده من يبلّغ الرسالة على تمامها، من عفريت، ومن بعض من عنده علم من الكتاب، فرأى أنّ الكتاب أبهى وأنبل، وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب. وقالت ملكة سبأ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيم"[5]فهذا مما يدل على أثر الكتب في تقديم أدوار اجتماعية تعلي من شأن أصحابها، وكذلك من شأن من تخاطب به.

[1] إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، عيسى البابي الحلبي: القاهرة، 1973م، ج1، ص 185.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 65.

[5] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 66.

ISSN : 2410-1818

ويستشهد الجاحظ على مكانة الكتاب والخطابات الورقية من خلال ما رآه في عصره، حيث إن الكتب قد قد يستعاض عن مضمونها من خلال إرسال شخص إلا " أنّ الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ." [1]

وهذه القيمة الاجتماعية للشكل الكتابي لها أثر على كل الأنواع التي يتشكل بها الكتاب سواء كانت رسالة إلى شخص قريب، أو إلى شخص ذي مكانة اجتماعية عالية كالأمير ونحوه، أو كتاب يحتوي على معلومات وأخبار، فمهما تغير مضمونه إلا أن له يضفي على صاحبة مكانة ورفعة.

والكتاب في عرف ذلك العصر لا يقدم إلا لأمر عظيم، وقريب من ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم حين أرسل الكتب إلى كسرى، وقيصر، والنّجاشيّ، وكان باستطاعته أن يرسل رسولا يبلغهم ما يريد، لكن الكتاب أليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب، وهذه المظاهر الاجتماعية في كثير من ملامحها مقترنة بالعرف السائد الذي يشكله أفراد المجتمع، وقد كان الجاحظ ينطلق منه في تحديد دور الكتاب من الناحية الاجتماعية، لاسيما حين تكون مخاطبة الطبقات الرسمية والمراتب العالية كالملوك والوزراء وغيرهم، فمخاطبتهم بالكتاب أنسب وأليق.

وهذا الموقف الاجتماعي نحو الكتاب قد يختلف عن الظواهر الأخرى التي انطلق منها الجاحظ، فالموقف السابق انطلق من منظور اجتماعي عام يشمل الجاحظ وأبناء المجتمع بكامله، لكن المواقف الأخرى السابقة كالجانب النفسي والتربوي وغيرهما، وانطلق الجاحظ من تصوره الخاص نحو الكتاب، دون أن يشترط اتفاق الآخرين معه وتصورهم، وهذا ما يميز المنهج الظاهراتي، فهو ينطلق من وجهة نظر صاحب الشأن دون غيره، وموقفه منه، وشعوره الداخلي تجاهه، ولذا قد نرى أناسا يذمون الكتب في عصر الجاحظ وفي عصور أخرى حتى يومنا هذا، وذلك ما يستدعي التوقف عند وجهات النظر الأخرى تجاه الأشياء، وقد ناقش الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد آراء الناس ومواقفهم من أمور عدة، ومنها موقفهم من الكتاب، إلا أنه انتصر له بطبيعة الحال.

7-الموقف من الجانب الحضاري

عرف عصر الجاحظ بأنه عصر تلاقي الحضارات المختلفة بالحضارة العربية، وكان أحد الفاعلين في ذلك الحراك الحضاري عن طريق الترجمة والمثاقفة والتأليف والنقد الثقافي للشعوب، فالجاحظ كثيرا ما قارن بين العرب وغيرهم من الأمم، وفاخر بهم، وفضلهم على كثير منهم، في مجالات عدة منها البيان والفصاحة، وفي مجال المفاخرة بالكتب يرى بأن العَجَم قيدت آثارها بالبنيان

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 65.

ISSN : 2410-1818

والقصور، ودونت على جدرانها وأعمدتها أبرز الحكم والأمثال ونافسهم العرب في ذلك، إلا أنهم تميزوا عنهم بتخليد مآثرهم بالكتب التي هي أبقى وأحصى للمآثر والحكم والبطولات.[1]

كما فضل الكتب على ما يحفظ من الشعر التي لا تحفظ إلا الأقوال والآداب والحكم، وتتناقل عن طريق المشافهة، أما الكتاب فهو يشمل ذلك، ويتفضل عليها بأنه أقدر على حفظ الصناعات والمخترعات والمكتشفات التي استقاها العرب من الأمم الأخرى، مثل: كتب أقليدس وجالينوس، في مجالات مختلفة كالحساب، والطبّ، والهندسة، والفلاحة، والتّجارة، وأبواب الأصباغ، والعطر، والأطعمة، والآلات، وما أنتجته تلك الكتب من اختراعات واكتشافات أسهمت في تحسين البناء والطب وغير ذلك.[2]

والجاحظ يردد أن التلاقي الحضاري هو خير معين على تطور الأمم والشعوب ولا يكون ذلك إلا من الكتاب، ولا يمكن أن نجمع الشعوب كلها في مكان واحد في ذلك العصر، إلا عن طريق الكتاب، ولذا فهو يستمتع بوجود حضارات مختلفة في مقام واحد، ويقول في ذلك: "ومن لك بطبيب أعرابي، وبرومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولد، وبميت حي"[3].

ويرى الجاحظ في الكتاب أنه يجمع بين منافع الدنيا والآخرة، وهذا منطلق حضاري ارتكزت عليه الثقافة الإسلامية، وامتاز به المسلمون عن غيرهم، حيث تكمن النظرة إلى الأمور بمعناها العام من خلال مكتسباتها الدنيوية والأخروية، فلا يغلب جانب على آخر، وذلك استجابة لقوله تعالى "وابتغ فيما آتاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا" والكتاب من الأمور الدنيوية إلا أنه وسيلة للآخرة، فكما ينتفع به في مجال تعلم الصناعات والبيان إلا أنه يقرب صاحبه للآخرة من خلال معرفة العبادات والطاعات وتجنب المعاصي، وكثيرا ما أشار الجاحظ في كتبه لهذا المعنى، ومن ذلك قوله مبينا مزية الكتاب الدنيوية والأخروية: "وأهدى بعض الكُتَّاب إلى صديقٍ له دفترًا وكتَبَ معه: هديَّتي هذه أعزَّك الله تزكو على الإنفاق وتَربُو على الكدِّ، لا تُفسِدها العواري ولا تُخلِقُها كثرة التقليب، وهي أُنْس في الليل والنهار والسفر والحضَر، تَصلُح للدنيا والآخرة"[4].

8-الجانب الشكلي الجمالي:

حرص الجاحظ على الاهتمام بلغة الكتاب ومحتواه العلمي وتحسين شكله "الثاني، وهو «البيان»، وهو ما يشير إلى الدور المركزي للغة في تشكيل الكتاب الجيد. إن الوظيفة المزدوجة للغة،

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 22.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 56.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 21.

ISSN : 2410-1818

عبر ثنائيتي العلم / المعرفة والبيان التعبير بوصفها قاعدة للتواصل الصحيح، هي الموضوع الأساسي في البيان والتبيين، ... من الواضح أن الجاحظ قد أعطى البيان أهمية لا كأساس ثقافي، وإنما بوصفه حجر الزاوية لكل جوانب الحياة، بما فيها معرفة الله، وأصل القرآن ومعناه في علم الكلام المعتزلي."[1]وهذا الحرص يوازيه جانب آخر اهتم به وهو الناحية الجمالية للكتاب، وشكله الخارجي، وسهولة التنقل به، وطرق صناعته، وشكل الورق وأنواعه، ونوع الحبر الذي كتب به، حيث وصف كتب الزنادقة بأنها تمتاز "بالورق النقي الأبيض وعلى تخير الحبر الأسود المشرق البراق"[2].

ويرى أنه لولا حسن الكتب وجمالها، وجمال أسلوبها، وضرورة تهذيبها وتنسيقها" لما تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبّ الأدب، وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرّة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره، إلّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه» :تفقّهوا قبل أن تسودوا".[3]

ومن خلال الاستعانة بخبراء تأليف الكتب من الحضارات المختلفة يؤكد الجاحظ ما ذهبوا إليه من شروط يجب أن تكون في الكتاب الجيد ومن ذلك رأي" ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدّ من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحد من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمّة، والمنفعة، والنسبة، والصحّة، والصّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، ..."[4] فهو يسعى لأن يكون الكتاب منسقا ومرتبا ومخرجا بشكل يستميل قلب القارئ، بجماله وتهذيبه، بغض النظر عن أفكاره ومعلوماته، التي يجب أن تخلو من المغالطات والانتحال.

9- الجانب الترفيهي:

عرف الجاحظ بأسلوبه الممتع في الكتابة، والمعتمد على كثرة الاستطراد، والتنوع في الموضوعات وقد بين أن ذلك من أجل التخفيف على القارئ، وإبعاد الملل والسأم عنه، وصرح بذلك في مواضع عدة من كتبه، وأكد أن على الكاتب أن يراعي في كتبه إيراد الأخبار المسلية، والطرائف والمضحكات "وأهلُ العِلم والنظر وأصحاب الفِكَر والعِبَر والعُلماء بمخارج المِلَل وأرباب النِّحَل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظُّرَفاء والصُّلَحاء وكتُب الملاهي وكتُب أعوانِ الصُّلَحاء

[1] سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 143.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 41.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 60.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 68.

ISSN : 2410-1818

وكتُب أصحاب المِراء والخصومات وكتُب السُّخَفاء وحميَّة الجاهليَّة.[1] كما أشاد في مواضع أخرى لأهمية تناقل أخبار الظرفاء وقصص من المزاح وأصحاب النكت، فيقول: "ظرفٌ حُشِيَ ظُرفًا، وإناء شُحِنَ مِزاحًا"[2].

وبين أن قصص كثير من القراء الذين صوروا جمال الكتب وحسنها، وأثرها عليهم في الليل والنهار، ودورها في نقلهم من حال الجهل والوحشة إلى حالة السرور والارتياح، حتى أنها سبب في طرد النوم والكسل عنهم، وأنه لا توجد لذة أجمل من البقاء معها، وينقل عن أحدهم قوله: "إذا غَشِيَني النعاس في غير وقتِ النَّوم تناولتُ كتابًا فأجِدُ اهتزازي للفوائد الأريحية التي تعتريني من سرور الاستِنباه وعزِّ التَّبيين أشدَّ إيقاظًا من نَهيقِ الحِمار وهدَّة الهدْم، فإني إذا استحسَنْتُ كتابًا واستجدْتُه ورَجَوتُ فائدته لم أوثِر عليه عِوضًا ولم أبغِ به بدلًا، فلا أزال أنظر فيه ساعةً بعد ساعةٍ كم بقِيَ من ورقِه؛ مخافَةَ استنفاده وانقطاع المادَّة من قِبَله."[3]

ويرسم الجاحظ منهجا له في التأليف ليؤكد ضرورة التنوع والتنقل بين الجد والهزل في قوله: "وربما كان الإقلال في إيجاز أجدى من إكثار يخاف عليه الملل. فخلطت لك جداً بهزل، وقرنت لك حجة بملحة، ليخف مؤونة الكتاب على القارئ، وليزيد ذلك في نشاط المستمع، فجعلت الهزل بعد الجد جماماً، والملحة بعد الحجة مستراحاً."[4]

ويستشهد بأقوال العلماء والكتاب الذين لم يفارقوا الكتب طوال يومهم بسبب حسنها الناشئ من التنوع والاستظراف، فالنفس مجبولة على حب القصص والأخبار المسلية، وهذا أمر مشترك آخر يشترك فيه كل القراء المتعلقين بالكتب، حيث إنهم ينظرون إلى الكتب من جانب أنها وسيلة للظرف والضحك والتسلية المباحة، ولو لم يكن ذلك المنظور ساكنا في ذواتهم لما استطاعوا التعلق بها، والاستمرار بالقراءة.

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 23.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 24.

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 24.

[4] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1384هـ – 1964م، ج4، ص 281.

ISSN : 2410-1818

الخاتمة:

بعد تحليل نصوص الجاحظ المعنية بالكتب والكتاب، وتجربته في القراءة والترجمة، واستنطاقها في ضوء المنهج الظاهراتي (الفينومينولوجي)، يخلص البحث إلى أن وعي الجاحظ بالكتاب لم يقف عند حدود كونه وعاءً آلياً لنقل المعرفة أو مجرد أداة تواصل، لقد كشفت القراءة الظاهراتية عن تحول جذري في هذه العلاقة، حيث تجاوز الكتاب وظيفته المادية ليصبح "ذاتاً مستقلة" تتفاعل مع تجارب الأديب، و"معادلاً موضوعياً" يعوضه عن اختلالات الواقع البشري والاجتماعي المحيط به.

وكشفت الدراسة عن أثر المنهج في كشف ظاهرة "أنسنة" الجماد؛ إذ أسقط على الكتاب صفات الجليس، والأنيس، والصديق، والواعظ، فقد أصبح الكتاب مثيلا للإنسان يعوض الجاحظ عن العلاقات البشرية، ويلبي حاجاته الفكرية والوجدانية، ويمنحه القبول الآمن، دون أن يفرض عليه قيود العلاقات البشرية المتقلبة وما يعتريها من ملل أو حسد أو نفاق.

ولم تقتصر هذه الرؤية الظاهراتية على حياته الخاصة والداخلية، بل اتسعت لتشمل أبعاداً حياتية متكاملة، فالكتاب في وعي الجاحظ يمثل استثماراً مادياً يورث المال والجاه، وجسراً حضارياً متيناً يربط بين الثقافة العربية وثقافات الإغريق والفرس والهنود، ووسيلة اجتماعية رفيعة للمخاطبة ومراعاة المقام، وقد آمن الجاحظ بفاعلية الكتاب بوصفه أداة تربوية تصقل العقل وتهذب الأخلاق، وتتكامل في الوقت ذاته مع حسه الجمالي المتقدم تجاه مادية الكتاب من حيث جودة الورق، ونقاء الحبر، والإخراج المتكامل، مما يؤكد التلاقي بين ارتباطه الحسي بالجماد بصفته المادية وارتباطه المعرفي بمحتواه، وعلاقته الوجدانية ليس بوصفه جمادا، بل صديق وأداة حضارية.

وفي الختام، يفتح هذا البحث آفاقاً أوسع لدراسة التراث المادي والأشياء والجمادات في الأدب العربي القديم دراسةً تحليلية تتجاوز حدود الوصف الخارجي الخالص .ويدعو الباحثين إلى الغوص في جوهر التجربة الإنسانية المكتوبة، وتسليط الضوء على "سيرة الأشياء" في نصوص التراث، لفهم الكيفية الدقيقة التي أدمج بها العقل العربي مقتنياته المادية ضمن نسيجه النفسي والاجتماعي والمعرفي.

ISSN : 2410-1818

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأصلية للجاحظ

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية: بيروت، 1424هـ، ج1، ص 38-55.
2. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال: بيروت، 1423هـ، ص 12-25.
3. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1384هـ - 1964م، ج1، ص 65-80.
4. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1418هـ - 1998م، ج1، ص 75-92.
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف: القاهرة، 1403هـ - 1983م، ص 40-58.

ثانياً: المصادر التراثية المساعدة

6. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر: بيروت، 1995م، ج1، ص 18-22.
7. أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، اللطائف والظرائف، دار المناهل: بيروت، 1985م، ص 45-50.
8. إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، عيسى البابي الحلبي: القاهرة، 1973م، ج2، ص 110-115.
9. علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، 1982م، ج1، ص 68-72.
10. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية: بيروت، 1998م، ص 68-70.

ثالثاً: المراجع الحديثة والدراسات الأكاديمية

11. سليمان الطعان، الكتب الأجنبية في الأدب العربي: خطابات في الكتب والمعرفة والعرقية في كتابات الجاحظ، مجلة علامات، 2015م، العدد 84، ص 125-148.
12. بشير الهاشمي، الكتاب.. والقراءة.. في حياة الأديب الجاحظ والكتاب: نموذج تراثي، مجلة الموقف الأدبي، 1985م، العدد 4، ص 38-52.

ISSN : 2410-1818

13. رانيا العرضاوي، قراءة ظاهراتية للصورة الكونية في شعر الصعاليك، النادي الأدبي الثقافي بجدة: مجلة جذور، 2021م، العدد 62، ص 85-112.

14. هند مصطفى أحمد قناص، الظاهراتية في ضوء البلاغة الجديدة: دراسة تطبيقية على نص من كتاب البخلاء للجاحظ، جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز: مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية، 2024م، العدد 19، ص 45-70.

15. تشاد إنجلاند، الظاهراتية: مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: أحمد شكل، مؤسسة هنداوي: القاهرة، 2018م، ص 22-35.

16. ألبرتو مانغويل، تاريخ القراءة، ترجمة: سامي شاعول، دار الساقي: بيروت، 2001م، ص 15-28.

17. فرجينيا وولف، كيف يقرأ المرء كتاباً؟، ترجمة: فاطمة نصر، دار شرقيات: القاهرة، 2000م، ص 11-19.

18. عمرو عبد العزيز منير، الذهب المزوّر واللؤلؤ المصنوع في كتاب المختار في كشف الأسرار للجوبري: التقنية والمحاكاة وصناعة القيمة في السوق الوسيط، مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 217-249.

19. بلال الأرفه لي، حين تنطق الأشياء: الأدب العربي والتراث المادي، المركز: مجلة الدراسات العربية، 2026م، المجلد 5، ص 153-164.

ISSN : 2410-1818

مجلـــة الأندلس للعلوم الإنسانيـة والاجتماعيـة
مجلـــة دوليـــة شهـريـــة علميـــة محكمـــة
الترقيـم الدولي الإلكتروني: ISSN:2410- 521X
الترقيـم الدولـي الورقـي :ISSN:2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلـة مفهرسـة فـي المواقـع الآتيـة :

العام	2021	2022	2023	2024	2025
معامل أرسيف	0.2692	0.1954	0.3759	0.3068	0.5978
معامل التأثير العربي	1.60	1.73	1.25	1.55	1.59